مبارك نسخهُ كلها وكان ناظرًا للمعارف . واتبع ذلك بكتب اخرى اكثرها ترجمات لاناس نبغوا في العلوم والفنون والصنائع ولكنهم لم يشتهروا لفقرهم فاشتهروا بنشره ترجماتهم حتى ان واحدًا منهم ربطت لهُ الحكومة الانكليزية معاشًا لما ظهرت ترجمتهُ

وكل الترجمات التي ألفها توخّى فيها ذكر الاساليب التي اتّبعها ارباب الاعمال على نحو ما يرى في سر النجاح لكنهُ توسع فيها جدًّا فما ادمجهُ في صفحات قليلة في سر النجاح بسطهُ في كتب كبيرة حتى تكون مرشدًا للذين يقتفون خطوات اولئك العظام . ولم يقتصر على تأليف الكتب بل كان يكاتب بعض المجلات العلمية والادبية ولهُ فيها المقالات الحسان . واسلوبهُ في الانشاء بسيط لكنهُ مكين فيعدُّ من الطبقة الاولى بين المنشئين . وكل ما كتبهُ صحيح في مبدإهِ مفيد في غايتهِ وسيبقى في المقام الاول بين الكتب التي افادت نوع الانسان

السر هنري ستنلي

اذا ذُكر العصاميون الذين ارتقوا بجدهم من ادنى المراتب الى اعلاها واستحقوا ان تُنشَر اسماؤهم في كتاب سر النجاح ليكونوا مثالاً لطلاَّب المعالي فالسر هنري ستنلي الرحّالة الشهير في مقدمتهم . واذا ذكر روّاد افريقية الذين اغروا ممالك اوربا بتدويخها واقتسامها وامتلاكها فلهُ الشأن الاكبر بينهم . غير ان فعلهُ هذا يختلف قيمتهُ من حيث سكان افريقية لانهُ ان آل امتلاك الاوربيين لها الى نفع سكانها الاصليين كما نرجو فيكون لهُ اكبر فضل عليهم وان آل الى ضرّهم كما نخاف فيكون من اكبر المسهلين لانقراضهم

ولد بيلاد الانكليز نحو سنة ١٨٤٠ من اصل وضيع جدًّا فلا يعرف شيء باتحقيق عن سنة ميلادهِ ولا عن والديهِ وكان اسمهُ جون رولندس . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمرهِ هاجر الى اميركا ويقال انهُ ذهب اليها خادمًا في احدى السفن وخدم هناك تاجرًا اسمهُ ستنلي واجتهد في خدمتهِ فأحبَّهُ ووعد ان يتبناهُ فغير اسمهُ وتسمى هنري ستنلي لكن التاجر مات قبل ان يكتب وصيَّتهُ وتركهُ صغر اليدين لا يملك شيئًا فاقام سنتين او ثلاثًا الى ان نشبت الحرب الاهلية فانتظم في سلك الجنود وأُخذ اسيرًا ولما انتهت الحرب جاء الى تركيا مكاتبًا لاحدى الجرائد ثم لما ارسل الانكليز حملتهم على بلاد الحبشة سنة ١٨٦٧ بعثتهُ جريدة النيويورك هرلد مكاتبًا لها فبعث اليها بخبر فتح مجدلة قبلما وصل الخبر الى الحكومة الانكليزية . وابدى في كل ما كتبهُ حينئذٍ وما كتبهُ قبل ذلك الحين وبعده من المهارة في الوصف والمقدرة على تمثيل

ما يريد ذكرهُ ما احلهُ محلاً رفيعاً بين كتَّاب العصر كما ترى في الخطبة التالية

ولما عاد من بلاد الحبشة ارسلتهُ جريدة الهرلد الى اسبانيا ليرقب الحوادث فيها وبعث اليهِ المستر غوردن بنت صاحبها وهو هناك يستدعيهِ الى باريس فلما حضر طلب منهُ ان يعود الى افريقية ليفتش عن لفنستون المرسل الانكليزي الذي مهد السبيل لرواد افريقية وللشركات التجارية وكانت اخبارهُ قد انقطعت من زمن طويل وظن اصدقاؤهُ انهُ قضى نحبهُ . فقام ستنلي للحال واتى القطر المصري حينما فتحت ترعة السويس ثم سار الى زنجبار وضرب في افريقية فوجد لفنستون في اواخر سنة ١٨٧١ وبقي معهُ اربعة اشهر يجوبان البلاد معاً وكان المرض قد انهك لفنستون فانتعشت قواهُ برؤية ستنلي وبما جلبهُ لهُ من الزاد

وعاد ستنلي الى اوربا فوصل انكلترا في اواسط سنة ١٨٧٢ فقوبل بالترحاب ونشر فيها كتابهُ المشهور وجعل موضوعهُ "كيف وجدت لفنستون" فراج رواجاً عظيماً جداً ولا يزال الناس يتفكهون بقراءتهِ حتى الآن وقابلتهُ ملكة الانكليز واهدت اليهِ علبة مرصعة بالماس واهدت اليهِ الجمعية الجغرافية نشانها الذهبي

وعادت جريدة الهرلد فارسلتهُ الى افريقية مع حملة الاشتتي ونشر بعد ذلك كتاباً جمع فيهِ رسائلهُ من مجدلة عاصمة الحبشة ومن كوماسي عاصمة الاشنتي وسمع بموت لفنستون وهو راجع مع حملة الاشنتي فود ان يتمم ما لم يتممهُ لفنستون من اكتشاف مجاهل افريقية فتمت بغيتهُ وارسلتهُ جريدة الدايلي تلغراف الانكليزية وجريدة الهرلد الاميركية على نفقتهما لكشف تلك المجاهل ففعل ما لم يفعلهُ رائد آخر من الروَّاد دار حول بحيرة فكتوريا نيانزا وحول بحيرة طنجنيكا واصلح خريطتيهما وكشف اكثر ما يعرف الآن مما كان مجهولاً حينئذٍ من قلب افريقية . والمرجح انهُ لم يكتشف احد اكتشافات جغرافية تماثل ما اكتشف ستنلي في تلك السفرة . وعاد الى اوربا سنة ١٨٧٨ لكنهُ ذهب الى افريقية اسود الشعر فرجع منها شائبهُ لكثرة ما عاناهُ من المشاق وما اقتحمهُ من المخاطر

وذكر في احدى رسائلهِ وهو في هذه السفرة ان نهر الكنغو يصلح لسفر السفن وان هناك باباً واسعاً للتجارة فلم يكد يصل الى اوربا حتى استدعاهُ ملك بلجكا اليهِ واستعان بهِ على تعمير تلك البلاد وفتحها للتجارة وردهُ الى افريقية لهذهِ الغاية ومن ثم انشىء ما يسمى بولاية الكنغو الحرة وافلحت تلك الولاية مدة اقامة ستنلي فيها الى اواسط سنة ١٨٨٤ ثم حلت بها العبَر بعد تركهِ اياها

وذهب الى اميركا يخطب فيها عما لقيهُ في رحلاتهِ فاستدعتهُ الحكومة الانكليزية

وطلبت منهُ ان يذهب الى اعالي السودان لانقاذ امين باشا وكان امين باشا مديرًا على مديرية خط الاستواء من قبل الحكومة المصرية وقد قاوم الدراويش جهدهُ وكادوا يتغلبون عليهِ فوعدت الحكومة المصرية بعشرة الآف جنيه لهذه الغاية واكتتب الانكليز بعشرة الآف جنيه اخرى . ولما اتم ستنلي عملهُ وانقذ امين باشا وعاد الى القطر المصري رحبت بهِ الحكومة المصرية واولمت لهُ وليمة فاخرة في ٣٠ يناير سنة ١٨٩٠ رأسها دولتلو رياض باشا الذي كان رئيسًا للنظار حينئذٍ . وبعد الطعام خطب ستنلي خطبة مسهبة وصف فيها رحلتهُ لانقاذ امين باشا قال فيها ما ترجمتهُ

الخطبة

قد حق عليَّ وعلى رفاقي مزيد الشكر لما لقينا في هذه الديار من مظاهر الاجلال والاكرام منذ دخلنا هذا القطر الى الآن فاليكم نُسدي الثناء ومنكم نبغي التكرم بالقبول

ان الحملة التي اسعدنا الحظ باتمامها على ما يرام كان السبب فيها اعتقاد الانكليز بانهم مسؤولون عمَّا باتت فيهِ حامية مديرية خط الاستواء من القنك والمركز الحرج وكذلك مديرها وكيل غوردون الذي امسى وحيدًا فريدًا في ديار مهجورة . فان المسيو ينكر لما عاد من افريقية افرغ وطاب الاخبار والانباء على اهالي الديار المتمدنة فقال ان في قلب افريقة رجلاً لم ينفرد هناك بارادتهِ بل طوعًا لاوامر غوردون رئيسهِ وانهُ محفوف بالاعداء من كل جانب وان الدراويش السائرين في جهات السودان عازمون على ان يمحوا آثار سطوة مصر عن تلك الديار وهم يتأهبون لغزو المديرية واعمال السيف في حاميتها واهلها وان الرجل الذي بات وحيدًا في تلك الاقطار عدم وسائط الدفاع وقاربت ذخائرهُ النفاد . وكنت حينئذٍ عازمًا على السفر الى اميركا فقابلني صديقٌ قديم وجعل يكلمني عن احوال المديرية الاستوائية وما آلم بها وبمديرها من النوازل ثم قال لي أتقدم على انقاذها اذا مددناك بالمال فقلت لهُ انكم انتم الانكليز بارعون في الاقوال بطيئون في الافعال . دبروا الاموال ثم اسألوني وعلى الله الاتكال . وسافرت بعد ذلك الى اميركا حيث كنت اخطب على اهلها وما اتممت الخطبة الرابعة عشرة حتى اتتني رسالة برقية ان ارجع حالاً الى انكلترا في اول باخرة فسافرت على الفور واتيت انكلترا وقلت اني مستعد للمسير فقالوا سر بعون الله وأعن امين باشا

وكان لنا اربع طرق للمسير الى المديرية الاستوائية وسأبوح لكم الآن بامر اظنهُ لا يزال مستورًا وهو اني كنت من بادىء الامر متحيرًا في نفسي طريق نهر الكنغو عالمًا انهُ افضل الطرق ولو كان اطولها اذ احسن الطرق لا يلزم ان يكون اقصرها فلما كاشفت اعضاء اللجنة

به اعترض بعضهم عليه فقلت لا بأس فاني وعدتكم ببذل الجهد ولا فرق عندي سرت في هذه الطريق او في غيرها وعليه جزمت على المسير في طريق شرقية لاغربية

وأرسلت رسالة برقية الى زنجبار بان يحملوا ٢٠٠ رجل مئتي حمل ارز ويرسلوهم الى امبوبوي في اطراف اراضي الالمان . وبعد مضي بضعة ايام اوعزت اليّ نظارة الخارجية الانكليزية بان المسير في تلك الطريق الشرقية يوجب الارتباك والقلاقل السياسية فالعدول عنها اسلم عاقبة من المسير فيها فاضطررت حينئذٍ ان اعدل عنها وعن سواها من الطرق الشرقية لان طريق كرغوى كانت مسدودة باعتراض قوم اوغندا فيها وطريق روندا الواقعة الى الغرب من طريق كرغوى لم تكن طريقاً تسلك لمن كان مثلنا حاملاً الذخائر والمؤن الكثيرة لاغاثة امين باشا وطريق نيسا وبحيرة طنجنيكا وهي الرابعة لم تكن موافقة لنا لان احوال الشركة الانكليزية هناك لم تكن يومئذٍ على ما هي اليوم او على ما آمل ان تكون بعد بضع سنين بل لم يكن عندها الاّ سفينة واحدة وهي لا تستطيع نقل ٨٠٠ او الف انسان فلم يبقَ لنا الاّ طريق الكنغو ولما اخبرت اللجنة بذلك قالت افعل ما بدا لك فارسلت تلغرافاً ثانياً الى زنجبار ان استرجعوا مئتي حمل الارز التي ارسلتموها . فكلفنا ارسالها وارجاعها خمسة آلاف ريّة ثم الحقت التلغراف بالتلغراف حتى دبّروا لنا ٦٠٠ حمّال لحمل المهمات والذخائر وسائر ما يلزم لاغاثة امين باشا

وربّ قائل يقول وما هذه الاغاثة وكيف تكون . اقول ان اصدقائي الانكليز اخبروني صريحاً بانهم يودون بقاء امين باشا في افريقية وتحافظته على مديريته وهذا ما كان يقوله لي كل انكليزي ولكني اوجه انظاركم ايها السادة الكرام الى مايلزم لامين باشا لوشاء البقاء فأولاً يلزم ان ترسل اليه ذخائر ومهمات كل سنة والاّ فلا يستطيع المحافظة على مركزه ثم ان عدد البنادق التي عند جنوده ١٧٥٠ او نحوها واذا اردنا ان نرسل لكل بندقية ٢٠٠ طلق فقط بلغ ما نرسله ٨٠٠ حمل يلزم لها ٨٠٠ حمال عدا ٤٠٠ حمل من البارود للجنود الخطرية وعدا الخرز والقماش وغيرهما مما يباع به الطعام للحمالين . وعليه يلزم الفا رجل كل سنة لنقل ٢٠٠ طلق لكل بندقية وهؤلاء الالفان يقضون سنة في الذهاب والاياب . ناهيك عن نفقاتهم ونفقات الهدايا والزاد والادوية والوف الاشياء التي تلزم لذلك بحيث تبلغ نفقات القافلة كل سنة لا اقل من ٣٠ الف جنيه . ومعلوم ان الحكومة المصرية وهبت ١٠ آلاف جنيه لانقاذ امين باشا وقالت انها لا تعطي مالاً بعد ذلك لانها بعد ما تخلت عن شمالي السودان واواسطها لم تعد تعبأ بالمحافظة على جنوبيها اذ لاحيلة لها في صيانتها ولذلك رأت الاكثر مناسبةً ان يعود امين باشا منها ويتركها كما تركت سواها . على ان الحكومة المصرية

والانكليز معاً تركوا الحكم في هذه المسألة لامين باشا اذا شاء البقاء بقي واذا شا

والآن اشرع في وصف رحلتنا بوجه الاختصار بعد قيامنا من زنجبار ومرورنا براس الصالح ووصولنا الى مصب نهر الكنغو في غربي افريقية

لما اتينا مصبّ نهر الكنغو قيل لي اني لا استطيع القيام من نقطة بنانا قبل ستة اسابيع ولكننا قمنا منها في اليوم التالي . ولما وصلنا الى بركة ستنلي اروفي سفينةً من احسن السفن التي تسافر في الكنغو الاعلى وكانت باليةً من طول الزمان وقد مضى عليها اشهر وهي ترمم فقال لي الناس جميعاً انكم لا تستطيعون المسير من هنا قبل اواسط مايو فطلبت سفينةً من سفن المرسلين الذين هناك فاجابوني انهم لا يقدرون ان يجيبوا طلبي . فلما اتينا شلالات ستنلي عُرض عليَّ كل ماهناك من السفن فسافرنا في الحال خوفاً من ضياع الزمان وكنت قد استصحبت شيخاً نخاساً تملاً بانهاباً يقال لهُ تبوتيب ولما كان لابدَّ لي من المرور في جانب من البلاد الخاضعة لهُ ولم يكن مأذوناً لي بمقاتلة احد عملت لهُ الولائم واحسنت لهُ المعاملة وعرَّفتهُ بالقوم كأنهُ ليس من ذوي البغي والفساد فرأى في البيض ما انعمهُ بانهم يعاملونهُ احسن معاملة اذا وفى عهوده بالصدق والاستقامة . ولما كنا في رأس الرجاء الصالح قال على مسمع مني ان البيض اناس صغار العقول فلما رأى عظم افعالهم قال لي كنت اظن ان البيض قوم مجانين فعلمت اليوم انهم ليسوا بلا عقول فقلت لهُ وستعلم بعد ما لا تعلمهُ الآن وتحكم ان الانكليز لا يقصرون عن العرب حذقاً وادراكاً . وذهب تبوتيب معنا الى شلال ستنلي ونزل هناك بناء على وعدهِ بان يقدّم لنا ٦٠٠ حمّال لحمل المحمات والذخائر فاني كنت قد احتضرت معي ما يلزم لتجهيز امين باشا اذا شاء البقاء في مديرية خط الاستواء ودبرت للحالين قبل المسير حتى اذا جهزتهُ بما يلزمهُ واذا لم يبقَ ارجعت المهمات معي ولذلك أخذت معي شيئاً كثيراً لم تكن حملتنا لتحتاج الى عشرهِ فعشرون صندوقاً من الذخائر تزيد عما يلزم لحملتنا حال كون ٢٠٠ صندوق لا تكفي حاجة امين باشا وقومهِ

ولما سافرت من انكلترا كنت اظن انهُ في معظم الشدة واشدّ الضنك وذلك كان ظن الناس جميعاً حتى اجمعت الجرائد على وجوب المبادرة لاغاثتهِ لئلاَّ يصيبهُ ما اصاب غوردون. ولما كانت السفن على الكنغو الاعلى غير كافية لنقل رجال الحملة كلهم بما معنا من الذخائر والمهمات اضطررت ان اترك جماعة من قومنا تحت قيادة برتلوت وغيرهِ من الضباط في محلةٍ هناك لينتظروا وصول اللوازم التي تخلفت عنَّا في الكنغو الاسفل . وكانت تلك المحطَّة منيعة حصينة ويجانبها حقول فسيحة مزروعة ذرة اقوتهم سنين عديدة واوصيتهم انهُ متى وصلت

اللوزم والمهمات يقطعون ثلاثة اتباع تبويب او بدونه في الادغال الممتدة امامنا فاعربوا جميعاً عن رغبتهم في اتباعنا وذلك اصدرت لهم الاوامر اللازمة وقمت عاجلاً حوفاً على امين باشا. وسرت مع ٨٩ رجلاً والضباط الذين ترونهم بيننا الآن فاصدين بحيرة البرت بلا ابطاء اما الادغال التي كانت تسد الفضاء امامنا فقد ادهشني كبرها وارهبني التفاف شجرها فجعلت اسأل نفسي عنها وعما اذا كانت مأهولة او لا وعن مسافة امتدادها شرقاً ليجيبني جميعاً الله اعلم فاننا لم نسمع عن عهد بانيا واحداً انه اخترق الغاب نهاية. فاذعنت بانا وقومي لحكم الضرورة ودخلنا تلك الادغال وظلنا شهراً كاملاً نسير فيها بلا انقطاع ونحن لا نرى شمساً ولا سماء لشدة التفاف الاشجار وتكاثف اظلالها ولا نرى حينا وهناك الا شعاعة من النور او ضوءاً شعشعياً مستطيراً حتى مللنا السير وسئمنا جميعاً. ان السير في تلك الخرجات اصعب ما قاسيناه من مشاق الطريق كلها

وبعد مسيرة ١٦٠ يوماً خرجنا منها الى العراء فانتعشت انفسنا بضوء الشمس ورؤية السماء واستنشاق الديد هواء وجعلنا نعدو في اراضي الحضراء كصبية يعتهم الصغر على البطر فمرحوا ولعبوا من تلاعب النسيم في عراف العشب الاخضر. ولما اشرفت منا الصدور حتى اطلقنا عيون قبائل قومية تتكلم لغة غريبة وهاجمنا مهاجمة عنيفة حتى حسبنا انها تريد صدنا عن كثير من اقتن الكنيوز او انها الحاد من تلك القبائل التي تهدد امين باشا. ولكننا فزنا بعد كل مقاومة بالوصول الى اطراف تلك الاراضي المرتفعة في ١٣ دسمبر ورأينا بحيرة البرت تحتنا بالعين وتسعة قدم. واحدرنا العين وخيمنا قدم مساء ذلك اليوم بمعسرنا في صباح اليوم التالي الى قرية في الزاوية الجنوبية الغربية من البحيرة. وكنا لسبب ما الم بنا من الضعف والهزال قد تركنا زورقنا الفولاذي وراءنا ولم نجد في البحيرة قارباً يتسع اكثر من اثنين معاً. وسألنا اهل القرية فوجدنا انهم لا يعرفون امين باشا ولا سمعوا باسمه وانه لا يوجد في البحيرة قارب يصلح لنقلنا جميعاً مسافة ١٩ ميلاً واحضروا لنا زورقاً عدنا الى البحيرة بعد مضي اربعة اشهر

ولما انزلنا الزورق في البحيرة تركته جنسن وبعض البحرية وسافروا جنوباً سائرين على الغربي نبحث عن مكان امين باشا ولم يمض الا ايام يسيرة حتى اشرفت منا الصدور برؤية الباخرة الحديدية قادمة تخر الماء فاضية تحتنا. وبات امين باشا والمسيو كاساني تلك الليلة عندنا ولم يطل عينا الاجتماع حتى اصغينا ما كنا نتصوره عنه وعن مديريته فعوضاً عن ان نرى رجلاً طويل القامة عسكري الهيئة كما كنا نتصور عنا رجلاً قصير القامة قوي البنية — نصدق ونتقول من قال "ان الطيور على اشكالها تقع". وعلمنا ان اورطته الاولى قد تمردت وعصت

منذ اشهر كثيرة وان كثيرًا من محطاته واقع في قبضة العصاة وان بقية الاورط من الجنود القانونية المنظمة تلتمس عذرًا لشق عصا الطاعة وغير القانونية تنتظرها لتحذو حذوها . فبقينا ستة وعشرين يومًا معًا وكنت في اثنائها احاول الوقوف على افكار امين باشا لأعلم ما اذا كنا نخطى بمسيرهِ معنا الى البحر او يبقى مع قومهِ في افريقية فكان يجيبني على الدوام حيث يذهب قومي اذهب وحيث يبقون ابقى فسألت كساتي عما اذا كان يشرّفنا برفقتهِ فاجاب اذا ذهب سعادة المدير ذهبت واذا بقي بقيت وسألت الضباط فاجابوا عين ذلك الجواب وبقوا عليهِ مدة الستة والعشرين يومًا ولم يشأ احدٌ ان يجاوبني صريحًا عن بقائهِ او مجيئهِ معنا لان امين باشا كان يريد ان يشاور قومهُ في ذلك ويعلم ما يقولون قبل ان يجاوبني قطعيًا . ولحظت على توالي الايام انهُ راغب في العمل ميال الى البحث والاكتشاف لانهُ من المجتهدين طبعًا فكانت مراقبة الطبيعة ودراسة اسرارها تلهيهِ عن مصابهِ وتكسبهُ السعادة في قلب افريقية ولو كلف ان يقضي ساعاتهِ في قهوة من قهاوي العاصمة لكان اشقى الناس حالاً واكثرهم زهدًا في الحياة واما في افريقية فكان سعيدًا لاعتقادهِ انهُ يصنع خيرًا

فلما لحظت ان امين باشا يبغي البقاء في افريقية وكنت راغبًا في الوقوف على جوابهِ القطعي قلت لهُ اني اعرض عليك ثلثة امور اولاً ان تكون مديرًا على هذه الديار كما انت الآن براتب الف وخمس مئة جنيه في السنة ومال قدرهُ اثنا عشر الف جنيه سنويًا لادارة مهامها . هذه فرصة لك فاجبني الجواب الصريح عنها . وثانيًا ان آخذك الى بلاد في هذه القارة من اجمل ما اكتحلت برؤيتهِ عينك فتسكنها مطمئنًا آمنًا من غزوات الدراويش وهجمات الثائرين واجعلك حيث يكون لك اتصال دائم بالبحر وحيث تأتيك الذخائر والمهمات على الدوام فتنال فيها مني نفسك ويدفع لك فيها راتب يوافق مقامك ودراهم تكفي لجنودك . نعم اني غير مفوّض بان اعرض عليك هذا الامر ولكني اتكفل لك بهِ واكون مسؤولاً لديك عنهُ . ولا انكر ان اول واجب عليَّ هو لسمو الخديوي المعظم ولكنهُ قد امر بقيامك من هنا ومرافقتك لنا الاَّ اذا ابيت انت ذلك وبما انك لا تريد مرافقتنا اعتقادًا منك بان قومك لا يرافقونك وانا قد اتيت هذه الديار لاخلص لك الخدمة فها انا قد عرضت عليك هذين الامرين عدا الامر الثالث وهو مرافقتنا لاقضي ما يجب عليَّ من خدمتك . فصمت ولم يجاوبني جوابًا قاطعًا لسبب سري خفي لا اعلمهُ وكان القلق قد اشتد بي لطول انقطاع اخبار برنلوت ورفاقهِ عني وصرت ارى من الضرورة التفتيش عنهم فقلت لهُ اذا كنت لا تستطيع ان تجيبني في الحال فاني امهلك مدة غيبتي عنك لتفكر في الجواب وتجزم الامر الذي يقرُّ عليهِ رأيك

فسرنا حتى اتينا قومنا المتأخرين فوجدنا النوازل قد ألمّت بهم وضعفت احوالهم ثم عدنا الى نيزا رابع مرّة واول خبر قرع مسامعي فيها بعد وصولي اليها ان امين باشا مسجون في مديريته ولم يبقَ عندهُ خدام ولا جنود وانهُ مقيَّد اليدين والرجلين فتصوروا انفسكم مكاني تعلموا ما خامرني بعد ما اتيت قلب افريقية لانقاذهِ ولقيت حذو النوازل مجتمعة امامي فكانت غاية سعينا واجتهادنا ان نسمع بسقوط المديرية وسجن امين باشا وخسارة ضابطي بعد ما خسرت اثنين قبلهُ ومئات آخرين من رجالي وامسيت في خطر من ان افقد كثيرين غيرهم ايضاً . فرأيت بادىء الامر ان استعلم عن احوال سجنهِ واسبابهِ ثم انظر في طريقة انقاذهِ . فقيل لي ان الذين سجنوهُ هم جنودهُ وذلك لانهُ وضع نفوذهُ عندهم في غير موضعهِ وانهم عن قريب يطلقونهُ لكن ضابطي اخبرني ان ذلك غير صحيح وان المديرية قد سقطت سقوطاً لا تقوم لها قائمة بعدهُ فقلت اني انتظر كل هذه الايام لاقف على جواب الاوربيين الذين هنا واعلم ما اذا كانوا يرجعون معي او يبقون في هذه الديار فان كان امين باشا قد بات اسيراً ولا يقدر ان يخبرني مَنْ يستلم المهمات التي جئتهُ بها او هل يقبل دعوة سمو الخديوي بالرجوع معنا فما لي الاَّ ان اتلف هذه المهمات وآمر بالرجوع . فكتبت الى امين باشا بذلك فكان جوابهُ حضورهُ بنفسهِ في احوال غير منتظرة وذلك انهُ بعد ما تمرَّد الجنود عليهِ غزاهم الدراويش واستولوا على اربع محطات من محطاتهم وعلى كثير من ذخائرهم ومهماتهم والقوا الرعب في قلوبهم فقالوا في انفسهم خيرٌ لنا ان نسترضي الخليفة في الخرطوم بالقاء القبض على هذهِ الحملة التي اتت وتسليمها كلها ليدهِ والحصول على الكرامة والشرف عندهُ من ان نتبع مديرنا ونلقي نصيبنا من نصيبهِ فما قولكم لو كنا الآن عبيداً وسيَّاساً للمهدي بعدما اوغلنا في قلب افريقية واعدين النفس بتحصيل المنى وتحقيق الاماني

ولا يخفى ان اولئك الجنود كانوا منغمسين في المكايد غمساً وروح العصيان يسري في عروقهم وان كثيرين منهم كانوا من قوم عرابي فاتفق رأيهم على ان يأتوا محلَّتنا ولكنهم علموا انهم اذا اتوا اليَّ وحدهم يكون اول سؤالي لهم اين مديركم واين ضابطي فلذلك رأوا انهم لا يتمكنون من مقابلتي الاَّ اذا اطلقوا سراحهما واعتذروا لمديرهم عما فرط منهم . ثم اعترفوا باني مرسل لاغاثة مديرهم من قبل سمو الخديوي المعظم وان الاوامر التي معي رسمية صحيحة فوعدهم امين باشا بالعفو عنهم وتعريفهم بي واتوا محلتنا معهُ ليستعلموا بانفسهم عن قوتنا ويعرفوا سذاجتنا من براعتنا

فلما وصلوا مدحهم امين باشا لسوء الحظ واطنب ولكني كنت مرتاباً فيهم لكثرة ما بلغني

عنهم ورؤية كثير مما لا يرضي منهم ولم اصدق دعاويهم واقوالهم لاسباب كثيرة . غير انهم قالوا انا اذا امهلناهم جمعوا العيال والجنود وجاءوا معنا الى مصر ليرفعوا شكرهم لسمو الخديوي على ما انعم به عليهم . وكانت ظواهر الصدق والاخلاص بادية على كلامهم وهيئتهم تدل على ندامتهم وتوبتهم بحيث لا يسع الساذج الاَّ تصديقهم فامهلتهم بطلب امين الباشا مدة ٣٠ يوماً كما اشار فرجعوا على البواخر الى وادلاي وسرقوا معهم بندقية من صنع رمنتن وهم راجعون

وصبرنا حتى مرَّ ثلاثون يوماً ولم يأتِ احد ولكن اتتنا كتابات كثيرة من وادلاي بحدوث الفتن والمكايد وان الناس انقسموا حزبين احدهما ناصر لفضل ملي بك والآخر لسليم بك والحرب بينهما سجال . وكان امين باشا لا يزال مقتنعاً بصدق قومه فلما مرَّ الثلاثون يوماً طلب اليَّ ان اطيل المهلة فامهلتهم ١٤ يوماً ايضاً واجَّلت المسير الى ١٠ ابريل . وفي ٥ ابريل وجدنا ان الذين لجأوا الى محلتنا من اهل المديرية يحاولون سرقة بنادق أخرى في الليل ثم تبينا في اليوم التالي انهُ لا يوجد الاَّ رجلٌ واحد يقصد مرافقة امين باشا من ست مئة نسمة لاذوا بحمانا وكان امين باشا معتقداً بامانتهم واثقاً بوفائهم

فحينئذٍ جمعت القوم واخبرتهم اني استلمت زمام الامور منذ ذلك اليوم فالذي لا يطيع اوامري يقتل بالرصاص فكفوا عن الدسائس ومحاولة سرقة البنادق مدَّةً من الزمان . وفي ١٠ ابريل قمنا من جوار بحيرة البرت بالف وخمسمئة رجل وبعد مسيرة عشرة ايام اضطررنا الى الوقوف لمرض شديد اعتراني على مسيرة ثلثة ايام من نيانزا فاصبحت محلتنا محطاً للدسائس والمكايد وسرقة البنادق وكان النساء يهربن ويوافين الرجال في محطة قديمة لنا على نيانزا ولثقل المرض عليَّ لم استطع الاَّ على وسوسة بعض الاوامر ولكن الضباط الذين كانوا معي كانوا من ذوي الهمة والمقدرة فسار الملازم ستيرس منهم الى نيانزا وامسك كل الذين كانوا قد فروا اليها ومن جملتهم رجل يقال لهُ ريحان وكان اصل تلك الدسائس كلها فشكل مجلساً وحاكمهُ محاكمة طويلة ثم حكم بوجوب قتلهِ واصرَّ على تنفيذ الحكم فوقَّعت على الحكم وقتل ريحان وكان ذلك آخر الاتعاب التي تحملناها من سكان المديرية الاستوائية

وفي ٨ ماي ١٨٨٩ سرنا قاصدين الاوطان فلما اخترقنا الهضاب الواقعة غربي بحيرة البرت اكتشفت اكتشافاً عظيماً في وادي سمليك وهو نهر يجري فيهِ ويستمدُّ ماءهُ من اثنين وستين جدولاً تنحدر عن سلسلة جبال علوها بين سبعة عشر وتسعة عشر الف قدم . واتضح لي لدى مراجعتي ما كتب عن تلك البلاد ان جغرافياً عربياً اسمهُ شياد الدين (كذا) وعصرهُ القرن الرابع عشر للميلاد وصف هذا النهر وصفاً بديعاً ودقق فيهِ بما لم يبعد عن الحقيقة . قال ان

خط الاستواء يقطع جبال القمر وتحدر عن هذه الجبال سيول وجداول كثيرة غربي نهر يصب في بحيرة عظيمة ينشأ النيل الابيض منها ويجري الى بلاد مصر اه . وهذا وصف صحيح لم يزد الخطأ فيه عن اميال يسيرة . والغريب اننا نكتشف الآن ما كان معلوماً عند الخلفاء والبطالسة والفراعنة قبلهم وحفظ في آثارهم التي توارثها الخلف عن السلف حتى اتصلت بجغرافيي العرب في زمانهم ثم عفت آثارها وطمست اخبارها حتى عدنا نكشفناها في زماننا . وقد اسعدنا الحظ في مسيرنا اننا رددنا بعض الرواسب اللحية الى اصحابها وقد اجرينا العدالة في عمانا هذا لاعتراض تلك الرواسب في طريقنا فدللنا عليه ما لا يوصف من الاكرام والضيافة على الرحب والسعة

نعم ان ولائم المتمدنين فاخرة وشاهدنا هذه الوليمة التي هي من افخر ما رأيت ولكن ما قولكم في اهل افريقية المتوحشين الذين ضافونا مجاناً ضيافة لا مثيل لها فاطعمونا ثمانمئة نسمة منا افخر اطايب ارضهم من لحم البقر ولحم الضان والخضر والاثمار مدة ثمانية اسابيع متوالية ولم يقبلوا منا عوضاً عنها ولا ثمناً بها وكانوا يحسبون قبولنا لها منهم منةً علينا وفخراً لهم . وبينما نحن نستشرف بحيرة فكتوريا رأينا صليباً فعلمنا اننا وطئنا اراضي المتمدنين ثم خرج المستر مكي المبشر الانكليزي لمقابلتنا وكان اول كلمة انكليزية سمعناها ان الانكليز يفتخرون بفعالنا . ولم يحدث ما يستحق الذكر مدة سفرنا من بحيرة نيانزا الى سواحل البحر سوى اننا التقينا بالالمان في اطراف بلادهم الجديدة في شرقي افريقية فاكرم ضباط الماجور وسمن ملقانا ثم متعنا وسمن باطايبه فتغيرت بملذاتها مناظرنا حتى زعم الذين رأونا على الساحل ان هيئتنا لا تدل على صدق رحلتنا . ولما وصلنا بغمويو وشاهدنا البحر حيياه تحية مشتاق اشتد به الوجد من طول الفراق وادب لنا هناك مأدبة من افخر ما أدب في تلك الاقطار وحضر المأدبة ستون او سبعون مدعواً وكانت خمورها طيبة وخطبها رنانة فلما فرغت من خطبتي قام امين باشا وشرب على صحة امبراطور المانيا ثم وقف المدعوون جميعاً وغنوا . وبينما انا احادث وسمن بعد ذلك اتانا خبر مشوم وهو ان امين باشا سقط عن ممشى القاعة على علو عشرين قدماً الى الشارع فرثينا من حالنا وكثر الاختلاط ونسينا الوليمة وهرعنا الى محل الحادثة المكربة فوجدنا امين باشا محمولاً الى المستشفى فتبعناه واذا هو ملقى على سريره ومنظره يفتت الاكباد ومن بعد ما كان فرحاً مفتخراً واصوات الترحيب ترن في اذنيه أمسى محطماً على آخر رمق . فقلت لا حول ولا ان الانسان في تفكير والله في تدبير . ولطالما اتاني في حياتي ما اراني ان قوة خفية تدير احوال البشر وهذا من اعظم الشواهد عليها . فقد انقذنا امين باشا من مخالب المهدويين واتينا به سالماً مسافة ١٤٠٠ ميل حتى وقف بين بني وطنه مكرماً مبجلاً تولم له الولائم بعد خدمة ثلث عشرة سنة في قلب افريقية . وكانت

هذه هي العاقبة انهُ يمسي في لحظة مجاور الاموات لعارض عرض لهُ . نعم ان شفاءهُ لا يزال محتملاً ولكن اناساً من الذين هم كفوء للحكم يرتابون في امكان شفائهِ

هذه هي قصة رحلتي ايها السادة واخاف ان اكون قد اطلت عليكم الكلام وان اكن لم اقل الاَّ اليسير فعندنا مالا يحصى من الحوادث والنكت التي تضحك وتبكي وتسرُّ وتحزن ولكني لا اتعرض لها لان الزمان قد فات وغيري يرغب في الكلام ثم شكر الحكومة المصرية على ايلامها تلك الوليمة لهُ وشكر الحضور على ترحيبهم بهِ . وبقي في القاهرة حتى كتب رحلتهُ ونشرها في انكلترا وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة في وقت واحد وذلك في شهر يونيو سنة ١٨٩٠ وهي في مجلدين وجعل اسمها "في اظلم افريقية" كأن الغرض الاكبر من رحلتهِ نشر هذا الكتاب والاكتساب بهِ

ولما عاد الى بلاد الانكليز نوبل بما لا مزيد عليهِ من الاكرام ومُنح رتبة دكتور في الشرائع المدنية من مدرسة اكسفرد ومدرسة كمبردج ومدرسة درهم . واقترن باسيدة دوروثي تنت في كنيسة وستمنستر كأنهُ ملك من ملوك الزمان

ومنح حرية مدن انكلترا واعطي الرعوية الانكليزية بعد ان فقدها باقامتهِ في اميركا وتجنسهِ بالجنسية الاميركية . وانتخب عضواً في مجلس النواب وفرَّستهُ [1] الملكة فكتوريا سنة ١٨٩٩ فصار يلقب بالسر هنري ستنلي وابتاع ارضاً زراعية اقام فيها وجعل دأبهُ الاعتناء بالزراعة والاحتناء بالذين يزورونهُ فيها من جلة القوم . وسيبقى اسمهُ مقروناً باكتشاف مجاهل افريقية وترغيب الدول الاوربية في اقتسامها وامتلاكها . وكان قصير القامة اسمر اللون برَّاق العينين فصيح المنطق شديد العزيمة

وكانت وفاتهُ في العاشر من شهر مايو من غير عقب ووردت رسائل التعزية على زوجتهِ لادي ستنلي من الملوك والعظماء والعلماء ومنها رسالة من ملك الانكليز بخطهِ قال فيها القد كان من نصيبي ان تعرَّفت بزوجكِ الذي امتاز على الاقران وكثيراً ما سمعتهُ يقص اخبار رحلاتهِ الكبيرة واكتشافاتهِ العظيمة والخدم الجليلة التي خدم بها العالم المتمدن . وان الشهرة الفائقة التي حازها ستحيا بعدهُ دواماً

وصلي عليهِ في كنيسة وستمنستر في السابع عشر من الشهر وحضر الجنازة الشريف سدني غرفل نائباً عن ملك الانكليز والكونت ده لا لنغ نائباً عن ملك بلجكا وكثيرون من اشراف الانكليز وعظمائهم من مثل لورد ربرتس ولورد نيوبورت ودوق ابركرن ولورد لنداف ولورد راي ولورد غراي ورؤساء الجمعيات ونوَّابها . وخلاصة القول انهُ لقي من اكرام قومهِ في حياتهِ وممانهِ ما هو حقيق بهِ وما يهوِّن اقتحام المخاطر على طلاَّب المعالي

(١) استعمل كتاب العرب هذا الفعل في زمن الفروسية كما يستعمل الانكليز فعل Knight